وجهة النظر الجديدة فى الحياة

للكاتب الصينى الكبير واب بوه شينغ

[حديث ألقاه فى جمعية الثقافة المركزية بتشنغ كنغ]

بقلم الأســــتاذ نور ناهين

إنى لم ألق محاضرة فى مكان عام ، فى تشنغ كنغ ، منذ بضع سنين لسببين : أولهما أنه لم يكن عندى كلام أحب أن أقوله فأحاضر فيه ، لذلك أمسكت عن الكلام ، لأستر فضيحتى عن أعين الناس . والآخر أنه لو كان عندى شىء من الرأى ، لاستطعت أن أنشره فى الجرائد والمجلات ، وما كنت أود أن أحتل مكانا يحتاج إليه العلماء والأدباء للتعبير عن رأيهم .. أما اليوم فقد اضطررت أن أقبل ذلك المركز حين دعتنى لجنة الثقافة المركزية ، وقد اخترت موضوع المحاضرة « وجهة النظر الجديدة فى الحياة » لعلى أسترعى انتباه السامعين .

وأبدأ كم بأن من الحق ألا أتهور فى هذه المحاضرة ، فانى لم أتعمق بحث الموضـوع ، وكل ما جمعت فيه ليس إلا رأيا لا يكاد يجتمع على نفسه ولا نظام له يمسكه ؛ لكن يخيل إلى أنى ما دمت بشراً يحيا بين أرجاء العالم ، وما دام لى شىء بسيط من الفكر ، فمن حق أن يكون لى وجهة نظر فى الحياة فيما عدا الضروريات من أكل ونوم وعمل ، سواء أكان وجه النظر هذا عميقاً أم سطحياً . ومع هذا فانى أظن أن وجهات النظر فى الحياة لا تزال تتغير دائما بتغير الأوقات من حيث التقدم والتأخر . إذ من المستحيل أن تظل واحدة مدى الحياة ، لذلك طالما تغيرت وجهة نظرى فى الحياة وتطورت ، وأنا أرجو دائما أن يكون تطورها علامة التقدم .

وقع الشك فى قلبى من مسألتين ، حين قارنت نظم المجتمع ومستقبل الوطن بما أعرف من خلق الشخصى ومعاملتى للناس .

الأولى أنه قد مضى علينا آلاف ومئات السنين ونحن نبحث عن العفة والفضيلة والخلق الحسن ، وندرس عوائد الإنسانية والرأفة والرحمة ، منذ عهد كونفشيوس ؛ ولكننا مع ما بذلنا من جهد فى البحث والدرس ، فقد بعدت سيرة الأمة عن القصد كل البعد ، حتى خرجنا عن كوننا أصحاب عفة وفضيلة ورحمة . إذن لا شك فى أنه لا يكفينا بحث الخلق الحسن ودراسة الفضيلة فقط فى هذا العصر .

والأخرى أننا تعودنا كلما تحدثنا فى تاريخ الشعوب أن نقول إن لنا تاريخاً مجيداً وحضارة تليدة منذ خمسة آلاف سنة . نعم ، ولا شك فى أن لنا تاريخا حافلا طويلا وحضارة مجيدة ، وهو تاريخنا وحضارتنا حقا . ولكن لماذا تأخرنا الآن ؟ لا شك أنه لا ينفعنا مجد أجدادنا منفردا .

بسبب هاتين المسألتين وشكى فيهما ، تذكرت ما قال الفيلسوف « نيتشة » . « من الضرورى تقدير قيمة كل شىء من جديد . »

***

لقد أفزعتنى مصيبة الوطن وأزمة الأمة التى أصابتنا منذ حادث[1] ١٨ سبتمبر جد الافزاع ، وحملتنى على أن أفكر فيما يستحق التهذيب من خلق حسب قواعد المروءة خاصة ، ثم فيما يجب على لخدمة الوطن حسب القوانين عامة . وأخيراً رأيت أن أعرض على الناس اقتراحى فيما أسميه « خطوات المرء الثلاث » ، وهو يشير بأن لا نعمل شيئاً ، إلا (ا) لفائدتنا بدون خسارة الناس ، و (ب) لفائدتنا وفائدة الناس ، و (ج) لفائدة الناس وإن لم نستفد .

نعم ، إن الإنسان كان حيوانا أنانيا ، إذ كان يفتح فمه لشرب اللبن منذ أن ولد ، ثم يخاصم أمه على شىء من الأكل والشرب فى عهد الطفولة . ولكن مهما يكن الأمر ، فالواجب على من بلغ سن الرشد الذى هو وقت حاجة المجتمع إلى عناية الفرد أن لا يعمل شيئا إلا حيث يستفيد بدون أن يضر الناس

(١) فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣١ ادعى اليابانيون أن الجيوش الصينية خربت السكة الحديدية لمنشوريا الجنوبية ، والواقع أنهم هم المخربون لها ، فضربت جيوش اليابان مدينة (مكدون) بهذا السبب ، ولم يكتفوا بذلك ، بل احتلوا ولايات الصين الشمالية الثلاث ، وكونوا (منشوكو) المستقلة فى الظاهر المستعمرة فى الواقع . بذلك بدأ اضطراب السلام فى العالم .

ثم إن استفاد وأفاد فذلك خير ، أما إن أمكنه أن يضحى بنفسه وفائدتها فى سبيل فائدة المجتمع فذلك ممن بلغوا الذروة فى الفضل والتضحية .

إنا إذا ترسمنا خطوات هذا الطريق فى سبيلى مصلحة الوطن والعالم ، ضمنا ألا يعمل إنسان إلا لفائدته بدون ضرر الوطن والعالم ، أو لفائدته وفائدة الوطن والدنيا جميعا ، أو يضحى بنفسه فى سبيل الوطن والعالم ، وذلك منتهى الإيثار .

على أساس هـذه القاعدة ، كنت ألقيت خطابا فى جامعة « تسين هوا » بمدينة بنغ بين ، ثم كتبت ست مقالات تحت عنوان « إلى شبان الشمال » حين وصلت إلى شنغ هاى ، بنيتها على هذه الأساس أيضا . أما من ناحيتى ، فكنت ولا أزال أتمسك بهذه المبادىء ، لتهذيب خلق الشخصى خاصة ولأحسن معاملتى مع الناس عامة .

وفى الربيع الماضى الذى كان آخر مرحلة من مراحل حرب الدفاع المقدس ، حين بدا لنا بارق النصر ، استأنفت الجهاد فى إيقاظ أبناء وطنى ، ليعملوا جهدهم فى إشعال الروح القومية ونبذ الكراهية والتلاوم والمحاباة . وذلك لما لاحظت فى قلوب الناس من دلائل الأغلال واليأس من الحياة ، قاصداً بذلك الإيقاظ انتشال الناس من المنحدر الذى كادوا ينحدرون إليه ، ودفعهم إلى تيار جديد عاصف . ولكننى الآن قد شعرت إزاء أمنيتى تلك أن كل ما عنيت ليس كافيا .

ولماذا شعرت بعدم كفايته ؟ ذلك لأن كل ما بقى فيما أشرت إليه من المسألتين المذكورتين لا بد أن يعاد تقدير قيمته ثانية .

إنى متأكد كل التأكيد أننا لا نقدر أن نتفوق على الهنود فى بحث علوم الفلسفة . ذلك لأن فلاسفة الهنود قد بلغوا ببحوثهم أبعد حدود الخيال الجميل ، حتى كأنهم كشفوا مرج عبقر حيث يسكن الجن ، وكل هـذا بدأبهم على البحث ومزاولة الزهد والطمع فى نعيم الجنة ، حتى أنكروا الحياة وعدوها من البلايا والمصائب ، ولكنهم أصبحوا من أضعف الأمم فى العالم ولا يزال وطنهم مستعمرا .

وإنى لأعتقد كل الاعتقاد ، وقد زعمنا أن لنا تاريخا فى الحضارة منذ خمسة آلاف عام ، أننا لن نقدر أن نتفوق على المصريين من حيث ذلك التاريخ ، لأن أسلافهم قد بنوا الهرم الأقدم قبل خمسة آلاف عام ، وألفوا التقويم السنوى لمعرفة أيام السنة ، قبل ستة آلاف سنة ، وكل هذا ظاهر بين ، فمن الحقيقة أن المصريين كانوا من الذين بنوا الحضارة ، ولكنهم الآن لا يزالون من أضعف الأمم ، ولا بد أن يبذلوا أقصى جهدهم للنهضة على الرغم من أن بريطانيا سمحت بالاستقلال .

أما علوم الأخلاق وفلسفة الحياة ، فقد كان أهل الصين فيها مبرة متفوقين على غيرهم ، ولكن شعب الصين ما يزال الآن متأخراً أيضا .

وكم شعرت دائما حين بدت لى علائم الضعف ، بأن ثمة شيئا من الخلل يعبث بحضارتنا ، ولا بد أن نبحث عن منشئه الأصلى خلف دائرة الهرج الظاهر فى حضارتنا .

بحث صديقى « لين تاو تزى » فلسفة نيتشة ونقدها ، ثم بين بحثه فى مقاله « نظرى إلى نيتشة » ، ولخص مذهب الفيلسوف فى كلمتين ، وهما : « إن الابتكار يكتشف ليعطى للناس ، ولكن ذلك الإعطاء ليس شفقة بهم » . أى أن القصد من الاختراع هو انتفاع العالم ، ولم يكن المخترع رحيما بالعالم فاخترع ، إنه يجهد فكره ليستفيد ويتمتع ، ثم حين يكتفى بالمتعة ، يعرضه على الناس ، إنما كان يخترع لنفسه ، وما كان يفعل كما فعل « يسوع وبوذا » رحمة للناس وإشفاقا عليهم .

إن النشاط لب الحضارة وروحها حقا ، إذ أنه لا تبقى حضارة إلا بالاختراع ، ولا يعيش ابن آدم ولا ينمو إلا والاختراع يقدمه من جهاته جميعا .

ومن يوم أن عرفت « أن الابتكار لنفع الناس ، ولكن انتفاع الناس ليس ناتجاً عن رحمة المخترع بهم » ، اتسع نطاق فكرى أو امتدت مسافته ، فتمكنت من معرفة بعض أساليب الحياة . خذوا منها مثلا ، فالشمس لو أضاءت ونشرت أشعتها وحرارتها ، فسرت الحياة فى الكائنات ونما النبات وشب الحيوان ، ثم توجهنا إلى الشمس وسألناها : « أيتها الشمس ! هل أنت أشرقت ونشرت الحرارة من أجل الدنيا وما فيها ؟ » فقد تجيبنا الشمس مرتبكة حائرة : « لا أدرى ، لا أدرى ! » وإذا نحن كررنا السؤال وأبينا إلا أن نعرف السبب فى ضيائها ،

فرعا أجابتنا مضطرة « إنى أنشر الحرارة لأنى أريد الحرارة ولا بد لى منها ! » تلك إحدى نظريات الحياة وأساليبها عرضتها عليكم أيها الكرام ، وهى قانون من قوانين الحياة التى تندفع إلى الأمام بدون تردد ، لذلك أعتقد أن الاختراع سيستمر كما فهمت من نظرية الشمس والحياة . وهذه النظرية وإن كانت من أنواع الفلسفة ، إلا أنها ليست مما يتفق مع مذهب « نيتشة » بل من فلسفة أعلى من فلسفة نيتشة .

لست أريد الغموض والخفاء بالبحث فى الفلسفة والنطق بها فى حديثى عن نظرية الشمس ، كلا ، فانه لا غموض فى الأمر ولا خفاء ؛ لأن ما قصدت من ذلك هو أن تكون وجهة نظرنا فى الحياة متجاوزة نطاق المتاع الشخصى إلى قوانين السماء ، المراد بالسماء ما وراء الطبيعة ، بل حقيقة الطبيعة ، وبكلام أكثر صراحة ينبغي أن تكون وجهة نظرنا فى الحياة متعدية تلك الحدود التى يعامل بها بعض الناس بعضا ، مسيطرة على الطبائع والكفايات ، مستعملة إياها فى الابتكار للحياة ، وهى ما دامت قد استخدمتها على ذلك الأساس فهى عين الفضيلة ولب السعادة للانسان ، وليست تلك الأمور فى حاجة إلى مراعاة وغاية ، بل هى داخلة فى نطاق منافع الحياة عن طريق الابتكار .

إن شدة العناية بالمتاع الشخصى والتجاوز عن مسايرة قانون الطبيعة هو الذى كلف حضارة الصين الخسارة والضرر . ولا شك أن أكثر العلوم العالية الصينية ، كان من فلسفة الحياة وأكثر علمائنا قد بحث علاقات الناس ببعض بحثاً عميقاً ظاهر العمق . خذ مثلا : ما يقال من أن كونفشيوس تشرف بزيارة الكاهن « لووتز » طالباً أدباً ؛ وكان كونفشيوس لا يزال شابا ناضج العقل ذا عزم وطموح ، فقال له « لووتز » بوقار الكهنة : « أترك ما فى نفسك من العناد والكبر ، ثم امح من نفسك ذلك الشره الذى غلب عليك . » يعنى ألا تكون مضطرم الفكر متبرم القسمات ؛ وألا تبقى فى قلبك شيئا من حب الشهرة والطموح . ثم قال : « إن التاجر الغنى هو الذى يخزن سلعه فى أعماق متجره ، حتى كأن دكانه خال من البضائع ؛ وإن الإنسان الكامل من يكون فى عفته الموفورة كالأحمق . »

فأولى هاتين الكلمتين تعلم الإنسان أن يكون تاجراً خائنا ، يدخر بضائعه لينتهز فرصة للربح الفاحش ، وثانيتهما تعلم الناس أن يتحامقوا عمداً . إلا أن كونفشيوس احترم « لووتز » ورأيه كل الاحترام ، فانصرف وقال لتلاميذه : « إنى تشرفت اليوم بمقابلة السيد الكاهن « لووتز » ، وما هو إلا تِـنّين ! »

وأعظم الظن أن كونفشيوس قد أخذ يكره تلميذه « تزلو » الشديد الجور بعد أن أدبه ، وكان دائما يشتمه قائلا : « يا للمزاج الهمجى ! يا للطبع البربرى ! » ثم أخذ تلميذه الأستاذ « تزتوا » يتاجر بعد ذلك ، فكسب كسبا جزيلا . فلا جدال أن فلسفة « لووتز » فلسفة ماكرة . وأما فلسفة « جواتز » ، فقد كانت فلسفة الجبن والضعف ، لأنها ستار يحتمى به صاحبه من ضرر الملوك الجبابرة من جهة ، وطريق يدرج فيه من جهة أخرى .

ولا جدال فى أن الأمبراطورين « ياو » و « شون » كانا من المثل العليا للعفة وحسن الخلق ، فلذلك دأب الصينيون على ذكر اسميهما فى معرض أمثال العفة وحسن الخلق . ولقد كان « شون » يعتبر الدنيا كحذاء عتيق لما كان أمبراطوراً ، وكان يبكى بكاء مراً ، ويستغفر الله من قسوة أبيه « قوسى » ، حتى هم أن يفر من الدنيا . وفوق ذلك كان دائما يهتم بشأن أخيه « شينغ » التعس الشرير لقلبه الخئون ، فكان يسر لسرور أخيه ، ويحزن لحزنه أيضا : وإذا كانت شئون النبى أو الأمبراطور لم تخرج عن حيز المتاع الشخصى هكذا ، فما شأن من قلت منزلتهم عن النبى والأمبراطور ؟

قال لى الأستاذ « فوماوجيغ » إنه حاول أن يكتب مقالا ، يتحدث فيه عن شئون موظفى الصين . وقال : إن الصينيين تعودوا أن يقرنوا ذكر الوزراء بذكر السرايا والمحظيات ، بل إنهم يعدونهم طبقة واحدة من الناس ، حتى أصبحت السرايا والمحظيات يتخذن أسلوب الوزراء والموظفين فى الحديث ، وينظرن إلى الحياة نظرتهم تماما ، حيث يتملقون أسيادهم رجاء رضاهم وسرورهم ومحبتهم لهم . ويعودون على زملائهم بالكراهة والخصام والحسد ، ثم يظلمون من هم أقل منهم بسطوتهم النافذة كل الظلم .

قلت له : ما أصدق ماقلت ، إلا أنى أخشى ألا تسمح سلطة الرقابة الجديدة بنشر مقالك هذا ، ولست ضامنا لك قط ذلك .

البقية فى العدد القادم

نور هاهين